

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾

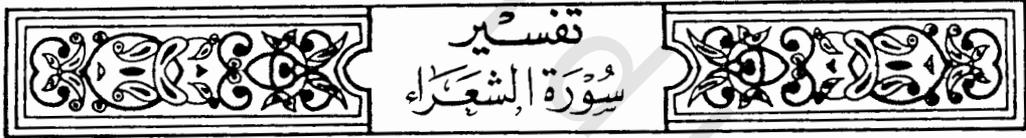
لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَنَاجِبَ وَسَلَامًا﴾ أي يتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

﴿حٰخِلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿حٰخِلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين لا يظعنون، ولا يحولون، ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا ييغون عنها حولًا. ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت منظرًا، وطابت مقيلاً ومترلاً.

﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي﴾ أي لا يبالي، ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده، ويسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّر ﴿١﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد مر في أول سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن المبين، أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشد.

﴿لَمَّا كَفَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿لَمَّا كَفَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي مهمل نفسك مما تحرص وتحزن عليهم ﴿لَمَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من يؤمن به من الكفار ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: 8].

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً . . .﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك، لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ . . .﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [يوسف: 103].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ . . .﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿الشعراء: 227﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض، وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض، ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي عز كل شيء، وقهره وغلبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله ويُنظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْفِقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُكَذَّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ

يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِشْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكُفًّا وَلَمْ يَكُن لَكَ الْكُفْرِيَّةُ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور

الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملكه، ولهذا قال ﴿أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْفَعُونَ ﴿١٦﴾﴾ - إلى قوله - ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ هذه أعداء سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ غَدَاةَ مِنِّي لَيْسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾﴾ [طه: 25 - 36] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٧﴾﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُوا لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْفٰلِغُونَ﴾ [القصص: 35]. ﴿فَأَذَهَبَا بِأَيِّدِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمُّ وَرَى﴾ [طه: 46] أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي ﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعٰلَمِينَ ﴿١١﴾﴾ كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47] أي كل منا أرسل إليك ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرٰوِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي أطلقهم من أسارك وقبضتك، وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِّنْ عَمْرٍك سِنِينَ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا، وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد ذلك قابلت الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت من رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ أي الجاحدين.

﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّٰلِّينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾ أي في تلك الحال ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّٰلِّينَ﴾ أي قبل أن يوحى إلي، وينعم الله علي بالرسالة والنبوة، ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّٰلِّينَ﴾ أي الجاهلين.

﴿فَفَرَرْتُ مِّنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿فَفَرَرْتُ مِّنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ أي انفصل الحال الأول، وجاء أمر آخر، فقد أرسلنا الله إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرٰوِيلَ ﴿١٢﴾﴾

أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماءً تصرفهم في أعمالك، ومشاق رعبتك، أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم، أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣)

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] ﴿فَأَسْتَحَفَّ فَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54] وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤)

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه، وإلهه، لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي، وما فيه من الكواكب الثوابت، والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾ (٢٥)

فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟

﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦)

فقال لهم موسى ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧)

أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)

﴿قَالَ﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً.

﴿قَالَ لَيْنٍ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢١)

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال ﴿لَيْنٍ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْتِيءٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢)

فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْتِيءٍ مُّبِينٍ﴾ أي ببرهان قاطع واضح.

﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٤)

أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح، والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج.

﴿وَوَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٢٥)

﴿وَوَرَعَ يَدَهُ﴾ أي من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي تتلأأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦)

أي فاضل بارع في السحر، فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر، لا من قبيل المعجزة.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٢٧)

ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته فقال ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي فيه، ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّائِنِ حَشِيرِينَ﴾ (٢٨) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٩)

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّائِنِ حَشِيرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم، يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت، وتكون لك النصر والتأييد، فأجابهم إلى ذلك وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَمِيقَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾ (٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣١)

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى ﷺ والقبط، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (٣٢) [الأنبياء:

[18] ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم، وأشدهم تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وحجاً غفيراً، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠)

ولم يقولوا: نتبع الحق، سواء كان من السحرة، أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ

الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢)

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ أي إلى مجلس فرعون، وقد جمع خدمه وحشمه، ووزراء ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم، والتقرب إليه إن غلبوا، أي هذا الذي جمعنا من أجله، ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢) أي وأخص مما تطلبون، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي.

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤)

وهذا كما تقول الجهلة العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان.

﴿فَأَلْفَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) فَأَلْفَىٰ السَّحَرَةُ سُدُجَيْنِ﴾ (٤٦) قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ

الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٤٨)

﴿فَأَلْفَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) أي تحفظه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه، فلم تدع منه شيئاً، فكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دافعة، وذلك أن الذين استنصر بهم، وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق، وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد، ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعددهم، ويقول ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (طه):

[71]

﴿قَالَ ءَأَمْسَرُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُفِطِنَ

أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْبَاتِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩)

تهددهم فلم ينفذ ذلك فيهم، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كشف عن

قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيد به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا قال لهم فرعون: ﴿أَمْ أَمْتُ لَمْ قَبَلْ أَنْ ءَأَدِّنَ لَكُمْ﴾ كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا علي في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿إِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ كُفُّمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل. ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أي لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا﴾ أي ما فارقنا من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر. ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب أننا بادرنا قوماً من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِذْ كُرُّوا مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

لما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون، ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه عز وجل، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، فلما أصبح فرعون وجنوده وليس في ناديم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي لطائفة قليلة.

﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لِعَاطُونَ﴾

أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيطننا.

﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ (٥٦)

أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية، والبساتين والأنهار والأموال، والأرزاق الملك، والجاه الوافر في الدنيا.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الاعراف: 137].

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم، وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر، فصار أمامهم البحر، وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلماذا قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه بها ففيها سلطان الله الذي أعطاه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل الكبير. قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلَةٍ كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبساً كوجه الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: 77].

﴿وَأَزَلَفْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَأَزَلَفْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنَ ﴿٦٤﴾﴾ أي قربنا هناك من البحر فرعون وجنوده، وأديناهم إليه.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنَ ﴿٦٦﴾﴾

أي أنجينا موسى وبني اسرائيل، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق رجل منهم إلا هلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعَزُّهُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة، وحكمة بالغة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعَزُّهُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على أمته، ليقنتوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل أي من صغره إلى كبره، فإنه وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل.

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَذَابِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي مقيمين على عبادتها ودعائها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم ابراهيم:

﴿قَالَ أفرءَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ

الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً، ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها، لا أبالي بها، ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: 71]، وقال

هود عليه السلام ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ [هود: 54، 55] وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: 81].

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨)

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) أي هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩)

أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً، وأناسي كثيراً.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠)

أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١)

أي هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبديء ويعيد.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢)

أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: 135] وهو الفعال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣)

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتبه ربه حكماً، قال ابن عباس: هو العلم، وقيل: اللب، وقيل: النبوة ﴿وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ﴾ أي اجعلني من الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً. وفي الحديث في الدعاء «اللهم أحينا مسلمين، وأمنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبديلين».

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤)

أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ [الصفوات: 78 - 80].

﴿وَجَعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾

أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

﴿وَأَغْفِرْ لِيَّ إِنِّي كَانُ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَأَغْفِرْ لِيَّ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فُلْمًا بَيْنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: 114].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

أي أجزني من الخزي يوم القيامة، ويوم يبعث الخلائق: أولهم وآخرهم. وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه، عليه الغبرة والقترة» وفي رواية أخرى «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أن ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين».

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي لا بقي المرء من عذاب الله ماله ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي ولو اقتدى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله.

﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي سالم من الدنس والشرك. أو القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي قربت وأدبت من أهلها مزخرفة مزينة لناظرها، وهم المتفوقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا وعملوا لها في الدنيا.

﴿وَوُزِّرَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَوُزِّرَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي أظهرت وكشفت عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

﴿ وَقِيلَ ﴾ لأهلها تقريباً وتوبيخاً ﴿ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ ﴿٩٣﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حطب جهنم أنتم لها واردون.

﴿ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِرُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

﴿ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِرُونَ ﴾ ﴿٩٤﴾ فدهوروا فيها، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك.

﴿ وَجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

﴿ وَجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ ﴿٩٥﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم.

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

أي يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين.

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون.

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ يعني من الملائكة.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ ﴿١٠١﴾ أي قريب. قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُكَّرُ مِنْ أَلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فقال ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَلْحَقُّ تُخَاصِمُ أَهْلَ النَّارِ ﴾ ﴿١٠٢﴾ [ص: 64].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١١٦﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١١٦﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١١٧)

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾

أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل ادخر ثواب ذلك عند الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٨) فقد وضح لكم، وبان صدقي ونصحي، وأمانتي فيما بعثني الله به واتممني عليه.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٢١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

يقولون: لا نؤمن لك، ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأردلين الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا، ولهذا ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٢١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنهم، والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٤) ﴿كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يبعدهم عنه، ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٤).

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٢٥)

أي إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني، وأنا منه، سواء كان شريفاً، أو ضعيفاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَه يَنْتُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَه يَنْتُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لنرجنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾

كما قال في الآية الأخرى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ ﴿١١٩﴾ [القمر: 10] وقال ههنا:

﴿فَانجَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾

والمشحون هو المملوء بالأمته والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأعرقنا من كفر به، وخالف أمره كلهم أجمعين .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ

الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٢٥﴾ فَانفَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْتَكْمَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام أنه دعا قوله عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: 69] وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة والأموال والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم: رجلاً منهم رسولاً وبشيراً نذيراً فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نعمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ اختلف المفسرون في ﴿ريع﴾ بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، بينون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً، لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكروا عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتاعب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة. ولهذا قال ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ والمصانع البروج المشيدة، والبنيان المخلد، أي لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عن من كان قبلكم. روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث

المسلمون في الغوطة من البنيان، ونصب الشجر قام في مسجدهم فنأدى: يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، وبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ

وَعْيُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّ أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾﴾ أي اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّ أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين ﴿١٣٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له بعدما حذرهم وأنذرهم، ورغيبهم ورهيبهم، وبين لهم الحق ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين ﴿١٣٦﴾﴾ أي لا نرجع عما نحن فيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [هود: 53]. وهكذا الأمر فإن الله تعالى قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: 6] وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: 96، 97].

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ يعنون ما هذا الذي جئنا به إلا أخلاق الأولين كما قال المشركون من قريش ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فَهِيَ تُمَلِّئُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: 5] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي لا بعث ولا معاد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة

الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَكُوا بِرِيحٍ مَّصْرَصٍ عَاتِيَةٍ ﴿١٦١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا - كَامِلَةً - فَذَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ آعْجَازٌ تَخَلَّ حَارِبِيَّةٍ ﴿١٦٢﴾ فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنَّا بَاقِيَةً ﴿١٦٣﴾﴾ [الحاقة: 8].

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٦٥﴾ أَلَا لَنْفَقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد عاد، وقبل الخليل عليه السلام فدعاهم نبيه صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل. ثم ذكرهم آلاء الله عليهم.

﴿أَتَذَكَّرُونَ فِي مَا هَلَيْنَا بِكُمْ أَمِينٍ ﴿١٧٠﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧١﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

يقول له واعظاً لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم الجنات، وفجر لهم العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ عن ابن عباس: أبيض وبلغ فهو هضيم، أو إذا رطب واسترخى.

﴿وَتَنَجَّحُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتَا فَرِهِينَ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٤﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿وَتَنَجَّحُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتَا﴾ فارهين حاذقين، أو شرهين أشرين، ولا منافاة بينهما فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٤﴾﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ يعنون من المسحورين أو من المخلوقين، لأن لهم سحراً، والسحر الرنة والأظهر أنهم يقولون له إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْكَ مِنْ يَتِينًا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِيرٌ ﴿١٥٨﴾ سَيَعْمُونَ عَدَا مِنْ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ ﴿١٦١﴾﴾ [القمر: 25، 26].

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَآءَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٩﴾﴾

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملؤهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَآءَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٩﴾﴾ يعني ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم.

﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْوٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْوٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٠﴾﴾ فحذرهم نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، ويتنفعون بلبنها، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماالأوا على قتلها وعقرها.

﴿فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة، اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾﴾ فَأَنْفُوا

اللَّهِ وَأَطِيعُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو لوط بن هاران، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليه السلام، وكانوا يسكنون سدوم

وأعمالها التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْن لَر تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان إلا أن قالوا ﴿لَيْن لَر تَنْتَه يَلُوطُ﴾ أي عما جئنا به ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي نفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: 56] فلما رأى أنهم لا يترددون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ قال تعالى: ﴿فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾﴾ وهي امرأته وكانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وأنزل الله العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَانْقَبُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا: - أخوهم شعيب - لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة، وكانوا يعبدونها، ولهذا لما قال: - كذب أصحاب الأيكة المرسلين - لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفظن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال: إلى ثلاث أمم، والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة. وما ورد أنهما أمتان غريب، أو فيه ضعف.

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ (١٧١)

يأمرهم ﷺ بإيفاء المكيال والميزان، وبنهاهم عن التطفيف فيهما فقال ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافية، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ (١٧٢)

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ والقسطاس هو الميزان، وقيل: هو القبان، أو هو العدل.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٧٣)

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعني قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا عَلَى كَلْبِ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الاعراف: 86].

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٧٤)

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى ﷺ: ﴿ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: 26].

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ (١٧٥)

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ يعنون من المسحورين.

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١٧٦)

أي تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٧٧)

﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ جانباً من السماء، أو قطعاً من السماء، أو عذاباً من السماء، وهذا شبيه بما قالت قريش ﴿ أَوْ تَسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ [الإسراء: 92] وبما قالت أيضاً ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آسِئِرٍ ﴾ [الأنفال: 32].

﴿ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٧٨)

﴿ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جزاكم به، وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم كما سألوا جزاء وفاقاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وهذا من جنس ما سأله من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يمكنهم منه شيء، ثم أقبلت عليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله عليهم منها شراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنزله الله عليك، وأوحاه إليك.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾

وهو جبريل عليه السلام. كقوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلُ عَلَيَّ قَلِيلًا يَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97] أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملائكة الأعلى.

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِيَتَّكِنَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس، والزيادة والنقص ﴿لِيَتَّكِنَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونعمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعدر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن، والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد ﴿وَمُبَشِّرًا بِأَنَّ مِنْ بَعْدِي أُمَّةٌ أَتَتْهُ﴾ [الصف: 6] والزبر لهنا هي الكتب، وهي جمع زبور.

﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٨٧)

﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٨٨) ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٨٩)

أي لو نزل الله هذا القرآن على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به، كما أخبر الله عنهم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ (١٩٠) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (١٩١) [الحجر: 14، 15].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٩٢)

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أي أدخلناه في قلوب المجرمين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقًّا يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٩٣)

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالحق ﴿حَقًّا يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٩٤) ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥)

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي عذاب الله بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٩٤) ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥) أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا بزعمهم في طاعة الله، وكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً.

﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٩٦)

﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا إنكار عليهم، وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: اتنا بعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿رِسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: 47].

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٠٥) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٢٠٦) ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَمْتَعُونَ﴾ (٢٠٧)

أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر، وحيناً من الزمان، وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم؟ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَرَبِّنا إِلَهًا غَشِيَةً أَوْ ضُحًى﴾ (٢٠٨)

[النازعات: 46].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (٢١٨) ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢١٩)

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْذِبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [التقصص: 59].

﴿وَمَا نَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٢٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢٢١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ (٢٢٢)

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا نَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٢٠) ثم ذكر تعالى أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم، ولا من طلبتهم، لأن من سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لثلاثي شتبه.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكْوَرُ مِنَ الْمُعْذِبِينَ﴾ (٢٢٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) وَأَخْفِضْ جَدْحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٦)

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يندر عشيرته الأقربين، أي الأذنين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٦) وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العمة، بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (١) [يس: 6] وقال ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: 97] وفي صحيح مسلم «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» وفي نزول هذه الآية أحاديث منها أنه أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبأ لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا، وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) [المسد: 1] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي

والإمام أحمد. ومنها ما روته عائشة أنه لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢٦٦﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابن عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» رواه الإمام أحمد وانفرد بإخراجه مسلم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢٦٧﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢٦٧﴾ أي في جميع أمورك، فإنه مؤيدك، وحافظك، وناصرك، ومظفرك، ومعلي كلمتك.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢٦٨﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٢٦٩﴾

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢٦٨﴾ أي هو معتن بك، كما قال ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48] ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يعني إلى الصلاة، أو من فراشك أو مجلسك. ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٢٦٩﴾ أي يراك وحدك ويراك في الجمع، أو قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٧٠﴾

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٧٠﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦١﴾ [يونس: 61].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢٧١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٢٧٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوتٌ﴾ ﴿٢٧٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه رئي من الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم واقترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي أخبركم ﴿عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢٧١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي كذوب ﴿أَثِيمٍ﴾ هو الفاجر في أفعاله ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء. وفي البخاري: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول

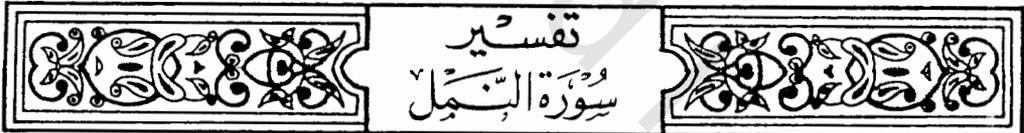
الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يتبعهم ضلال الإنس والجن ﴿يَهِيمُونَ﴾ في كل لغو يخوضون. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعوج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً» ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أكثر قولهم يكذبون فيه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

لما نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: 224] جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ أي من الشعراء وغيرهم، والآية عامة في كل ظالم.



تفسير سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ هذه آيات ﴿الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي بين واضح.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ الَّذِينَ يُعِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه